قصة قصيرة

الصخرة السلفية

مولود عاشور

فات الاوان ! كم من مرة كررت شفتاي هذا ؟ لم يصعب عليّ — في هذه المرة — ان اركب الحافلة في الوقت المحدد . امتنعت عمدا . لا ، لم تكن الشيخوخة هي السبب ولا الكسل ايضا . كنت لا أزال شابا ، لم أتصرف بارادة فقط . انا سجين نفسي . حكم عليّ هذا الوجود الذي كنت ابغضه وأنفر منه . ولكن ذكريات الحياة الاخرى — الحياة الماضية — كانت تخيفني أكثر ، حتى ان الوجوه التي كنت أعزّها تلاشت من ذاكرتي المحاطة بمرارة كل ما عشته هناك .. بهذه اللعنة التي تطاردني الى الآن .

— صاحبتك (دعوة الخير) ؛ حتى ولو اعلم ان عينيّ المستهلكتين لن ترياك ابدا .

بدون شك ، لم يكن يفكر في شيء . كان أبي وكنت الاول — من اخوتي الخمسة — الذي أتركه . ولا زالت باقية في نفسي هذه الجملة التي سمعتها منه وأنا اجتاز عتبة باب المنزل حيث أصبحت لا اصلح . ولكنها لعنة احتفظ بها .. انها تضايقني باستمرار .

والآن ؟ ها أنذا كالغصن الحقير في فرع بال ، والنسغ لا يسيل الا عليّ .. ولكنه نسغ متعفن ، متهرئ .. يقتلني ببطء .

* * *

كانوا ثلاثة أشخاص داخل سيارة صغيرة يكسوها الغبار وهي تصعد الدرب الابيض من اشعة الشمس . اثنان منهم كانا بسن الشباب ، أحدهما يقود بحذر ، والآخر جالس في المقعد الاخير ، وقد جاء — فقط — ليتمتع مجانا بتلك النزهة . أما الشخص الثالث فكان جالسا الى الخلف وقد ظهر اهتمامه الحقيقي بالسفر الذي تم من أجله .. نظراته الغريبة ، سكوته ، واعجابه بما كان يحيط به — كل ذلك يؤكد انه لم يكن يرى في ذلك مجرد زيارة للريف ، وكانت فكرة التسلية والتمتع غائبة في بحر تلك النظرة التأملية التقديسية التي أبعدته عن رفاقه منذ أن غادرت السيارة الطريق المعبد لتأخذ هذا المسلك الوعر . لم يكن يستهويه جمال الطبيعة الا عند حدود تخيله — على أثرها — لاعادة تشكيل حياة ماضية .. كانت حياة له لوحده .

بدا الاثنان الآخران بعيدين عنه وهما يتحدثان عن أشياء أخرى . كان تفكيره يعلو كل الاحساسات بعيدا عن الطريق المزروعة بالحفر ، وغبارها الخانق ، وعن صوت المحرك المزعج وقد صعب عليه صعود الربوة .. ولم يفلت من عالم ذكرياته الرهيب الا جسده . هذا الثقل المتعب . بقي ملتصقا بكل وزنه الى المقعد ، يتحرك في صعود وهبوط وفق هزات السيارة . وراء زجاج نظاراته الغليظة كانت عيناه ثابتتين ونظرته التائهة مصوبة نحو عالم لم يكن يبصره سواه .

ظهر على وجهه أثر اعوام عاشها مليئة بالحيوية ، وبدا شكله قاسيا . تتجلى ملامح الشيخوخة واضحة في التجاعيد البارزة عند أطراف عينيه كلما ترمشت . ولكن حيويته تجعل من يراه يتساءل عن صحة سنه . أما شعر رأسه ، فقد بدأ يشيب عند الصدغين والرقبة .. تقلّ الشعيرات البيضاء عند اكليل رأسه لتفسح مجالا لجبين أحد المفكرين . بعفوية متكررة ، يعيد بيده السيجارة الى شفتيه .. يشعلها كلما انطفأت بالدقة نفسها والحركة الغائبة نفسها . وفي كل مرة ، لا يحسّ الاثنان الآخران بوجوده الا عندما يحدث صوتا بجهازه الغازي ليشعل سيجارة .

كان ذا قامة طويلة . يحرك بصعوبة رجليه المنطويتين في ذلك الحيز الضيق . لباسه كان نظيفا وبلا أدنى أناقة . وبذلك تتم أوهام فترة الشباب التي ضيعها منذ عهد قديم .

— أظن ان الطريق من هنا ، لم تبق لنا الا مسافة قصيرة .

كيف له أن يعرف ذلك وقد اعترف انه لم يطأ تلك الجهات منذ دهر ؟ ودون أي تفسير انغمس في العدم الذي تركه لبرهة وهو يرى ملتقى طريقين . سحب ملاحظته باشارة من يده .. في الحقيقة ، لم يكن يعلم شيئا . تفطن لحدس سري ينبئه بطريق العودة ، لانه عندما ذهب لم تكن الطريق موجودة .. وقد التحق

بالطريق الوطني ـ آنذاك ـ عبر الدروب الجبلية ، ميدان الدواب والبغال .

حين تابع السائق الطريق متشبثا بمقوده ومطمئنا لهذا الانسان الغريب ، ترك الشيخ العنان لرؤيته ـ من خلال النافذة ـ ليتأمل الخيط الابيض من واد جفت مجاريه .

الطريق ملتوية ، تتخللها منعرجات لا تحصى ، وتبدو مشرفة على قرية تسيطر على الوادي .. ها هو القرميد الاحمر ينتشر في شكل مثلثات مضعفة .

على جوانب القرية ، تواجدت حقول ونباتات خضراء وقد زادتها كثافة واخضرارا أشجار البلوط الكثيرة . أما الديار فكانت متماسكة ، متقاربة ، وكأنها تتأهب لمواجهة الغابة المهددة ... لم تكن الا خاطرة .

بعيدا ، أخذ الطريق يغيب عن الاعين تحت ضباب الغبار المتصاعد . ومن حين لآخر تظهر اشعاعات سريعة كان يحدثها انعكاس الشمس على احدى السيارات .. اذن كانت السيارات موجودة في تلك الناحية !

يقطع الشيخ ـ في هذه اللحظة ـ تأملاته ليبتعد قليلا عنها ، ويشير للسائق ان هناك خللا في السيارة .

بالفعل ، كان السائق « حسين » يعرف تكاليف السيارة ، ولم يكن يبتعد في اسفاره . ثم انه ليس من السهل المغامرة في هذه الطرق الوعرة .

كان يفكر في مرأب تصليح السيارات .. غلاء القطع .. كان خائفا في هذه المرة من تمزيق عجلة أو فقد أحد النوابض ، ولذا كان يقود بانتباه شديد متفاديا كل الاخطار بالقبضة المحكمة على المقود .

ـ سيارة من نوع (جيب) هي أصلح لهذه الطريق .

كان يكرر ذلك باستمرار في حين ان الشيخ ـ بجانبه ـ كان يحاول التخفيف من تفكيره وحيرته .

ـ لم تبق الا مسافة قصيرة ، أنظر هناك ! القرية تقترب .

ـ نعم ، ولكن الرجوع ...

لم يسمعه الآخر . كان موقفا معاكسا الى حد ما ، غير ان الشاب تظاهر بعدم الاكتراث لكي لا يزعج الشيخ، كان من جيرانه ويعرف عنه ما يجعله يغفر له هذا الغياب .

لقد سمع « حسين » حكاية هذا الرجل الطويلة . وفي ذلك اليوم قرر أن يجعل سيارته في خدمة هذا الشيخ من أجل هذا السفر الطويل . الحكاية ـ في حد ذاتها ـ كانت تافهة . رجل متعب ، يترك والديه غير راض بحياة أجداده . يهاجر .. غير انه لم يكن كبقية المهاجرين من تلك الجبال ، لم يتخذ طرقهم نفسها في اكتساب عيشه . أكثر من ثلاثين سنة في أوروبا ، ثم يعود الرجل لبلاده ، لا لقريته التي لم يسمع عنها شيئا !

ولكن في أعماق هذه الوضعية التافهة التي لم تكن الا ثمرة الظروف المبالغة في حكمها ، تستشف الأصالة الحقيقية من حياة العربي ـ هذا هو اسمه ـ المأساة التي ميزته ، مأساة الوحدانية عند انسان تيقن من استحالة العيش وحيدا .

كانت له زوجة ، وأولاد كثيرون أحبهم . وذات صباح وجد نفسه وحيدا . الزوجة المخلصة منذ ثلاثين سنة لم تعد ترى ضرورة العيش مع رجل اختار الرجوع ـ معها هي ـ الى وطنه الحقيقي .

أما الابناء ، فكانوا ممزقين بين دم الاب ودم الأم . دمان مختلفان يسريان في عروقهم . ولكنهم كانوا كبارا. قادرين على التفكير فاختاروا أن يطيروا الى لا رجعة . فعلوا ذلك تاركين الشيخ وحيدا مهجورا . وآنئذ بدأ يرى الجزيرة من بعيد .

« عودة الابن الضال » . ابتسم « حسين » لهذه العبارة وهو ينصت بتمعن . شيخ كهذا يطلق على نفسه هذه التسمية بعد غياب أربعين سنة .. انه شيء مضحك . غير ان وراء ابتسامة الشاب يكمن احساس عظيم بالشفقة نحو هذا الشيخ الذي فقد الكل وهو يظن انه يستغني بسهولة عن القطيع .. حدق فيه طويلا .. لم يكن يرى بدا للمرح ، فغيّر العربي من طبيعة كلامه وغمرت حديثه مرارة زادته صدقا وحدّة .

لقد حدثت أشياء وأشياء طوال هذه المدة .. شكّ في حقيقة الميناء التي لجأ اليها الشيخ عند شدة الضيق .. ولكنه مع كل هذا ، تقبل أن يرجع .

تقترب السيارة شيئا فشيئا . ويحسّ العربي في داخله توترا متصاعدا . سوف يصل بعد قليل والله أعلم بمن سوف ينتظره في هذا المكان الذي بدا له ـ بغتة ـ معاديا .. لقد كانت هذه العودة القاسية ثمن السنين التي نسي أثناءها الارض .. أي استقبال كان يمكن أن ينتظره في مكان قد غيرته الظروف بلا شك ؟

استطاع الآن أن يتعرف على بعض المواقع التي كانت مسرحا عرضت فيه لقطات طفولته .. أسماء ، وأماكن بدأت ترجع لذاكرته . بدأت حافتا الطريق تتضحان .. أخذت النباتات تنقص كلما اقتربوا من الحي . على الجانب الايمن تطل ثمرات في شكل حبات سوداء من عناقيد العلّيق ، وكانت النظرة تشق طريقها عبر حقول الكروم وأشجار الكرز . وعلى الجانب الايسر، تواجدت أسلاك حديدية على امتداد الطريق حاجزة بعض الاراضي المزروعة ، وقد قصدها الفلاحون رغم تفرد الحرارة في ذلك اليوم . كانت كل النواحي جرداء، وكلما مرت السيارة بأحد المشاة حيّا باشارة عفوية تنطق بصدق الاحترام للزائر الغريب .. وكلما مر أحد وغاب داخل الغبار المتصاعد حاول العربي ـ دون جدوى ـ أن يضبط اسما معينا .. لقد كان من الممكن أن يتعرف على الذين هم في مثل سنه . مرّ ثلاثة شيوخ ولم

تتمكن ذاكرته من استرجاع أي اسم .. وبدأ يفقد الامل .

عند أحد المنعطفات ، كادت السيارة تصطدم بحمار . وكان الطفل الراكب على ظهره يحاول اقتطاف الحبات السوداء من الشجرة الشائكة ، فقفز خفيفا وسقط على رجليه سالما .. ثم اكتفى باشارة غاضبة من يده الى السائق تعبيرا عن رغبة الثأر منه رغم قامته التي جعلت المنظر مضحكا . ابتسم « حسين » لذلك ، وعلق الشيخ :

ـ انها وسيلة جيدة لاقتطاف هذه الثمرات ، اليس كذلك ؟

ـ بدون شك ، كنتم تفعلون هذا في مثل هذه السن ؟

ـ نعم . وما زلت أحمل علامة جرح في الركبة . ولكن لو ذقت طعم هذه الحبات « الوحشية » فانك لن تلومني على ذلك ، انها حقيقة لذيذة .

كيف تمكن أن يستعيد طعم هذه الثمرات الصغيرة السوداء وهو الذي لم يتذوقها منذ عهد طويل ؟

وتدخل الجالس الى الخلف الذي لم يتكلم قط .

ـ انك تمزح . مع هذا الغبار لن تكون هذه الحبات الا متعفنة ...

ـ الشيء الذي ارفضه عندكم أنتم الشباب هو جانبكم المدني . انكم تحملون المدينة في عروقكم ، ولا أحد يمكن أن يغير أذواقكم المعادية لجمال الوجود الريفي .

توالت كثير من الاعتبارات في شكل نكت ذكية . تحدث العربي عن أيام طفولته في هذه الامكنة حيث يأتيه كل منعطف بسيل من الذكريات .

وتيقن «حسين» اثر ذلك من مبدأ «البسيكولوجيا» القائلة عن ذاكرة الرجل المسن انه يسترجع الاحداث البعيدة ويبقى الشباب مسيطرا على الماضي القريب .

* * *

قبل الوصول الى منازل القرية ، تخترق الطريق المقبرة .. قبور كثيرة مترامية هنا وهناك .. البعض منها جديد يغطيه الرخام الساطع المذهب وبعضها قديمة اصبحت سطوحا مثلثة عليها أحجار متآكلة .

من قبل ، كان الطريق يمر بعيدا عن المقبرة ، وذات مرة أتت جرافة وشقت طريقا وسط القبور . بعد ذلك وجد الناس عظام الاجداد متناثرة فدفنوها في التراب داخل حفرة مشتركة .. لم يعترض أحد ، ذلك لان مرور هذه الجرافة لم يكن الا تمهيدا لاحداث اكثر قساوة وعنفا .

لم يكن العربي يدري كل ذلك . ولذا قرر أن يبدأ زيارته بالمقبرة يقينا منه انه لن يجد ضمن الاحياء عددا من الشاهدين على حياته في تلك البقاع .

في وسط القبور الاخرى من الجهة العليا تراءى له مربع بقبور مصطفة تبدو حديثة العهد وقد توسطها نصب هرمي الشكل .. في الاوجه الاربعة من الهرم أثبتت لوحات من الرخام عليها قائمتان طويلتان مكتوبتان بحروف ذهبية . لاحظ العربي ذلك في كل الجهات ولكنه صمم أن يبدأ بحثه من ذلك الهرم .

لم يجد قبور اخوته الاربعة ضمن المربع ، ولكن الاسماء كانت موجودة الواحد تحت الآخر مع تحديد الاعمار المختلفة . لاحظ « حسين » ـ الذي صاحب الشيخ ـ ان اضطرابا يعلو ملامح العربي ويطغى على وجهه النحيل .. عيناه الصافيتان تبرقان عبر النظارات .. هو كذلك قرأ الاسماء . كان اسم الشيخ العائلي يعود مرارا وكان القرية كلها من عائلة واحدة .

وتكلم العربي :

ـ ان جد جدي هو الذي أنشأ هذه القرية، وعائلتي هي التي سقطت دفاعا عنها لكي تبقى الصخرة التي وضعها ثم تحيط بها هذه المنازل ويكون لها معناها الحقيقي .

بعدها ، سمعه « حسين » وكأنه يحدث نفسه « المعز المجراب » .. ثم كلمات بدون تتمة . وقبل أن يغادر مربع الخلود بكتفيه المنحنيتين أكثر من أي وقت مضى ، فهم الشاب « حسين » ضرورة تركه وحده .

جال العربي كل مساحة المقبرة ، ولم يجد قبر أبيه بسبب الطريق التي جرفت كل شيء . ولم يستطع كذلك أن يعثر على قبر أمه الذي ما زال يتذكره جيدا بعد أن رآه يوم حفروه .. ورغم جهده عجز عن التذكر .

لقد غادر القرية بعد بضعة أسابيع من موت أمه . ماذا كان له ان يفعل غير ذلك ؟ بعد أن رأى امرأة غريبة تحتل المكان حاكمة وشبح أمه لم ينمح بعد ، لم يتحمل ذلك .. اخوانه الآخرون كانوا صغارا وشقيقاته قد تزوجن . وهكذا اختار الهروب وقد تجاوزت الظروف السبب الرئيسي .. سمح لنفسه أن يحكم على أبيه وجعل من نفسه منفيا . وبحجة المنفى المتعمد داس كل المبادىء والقيم التي ضبطت وجود ذويه منذ العهود الغابرة .

أعاد التفكير في كل ذلك .. حاول ـ وهو في المقبرة ـ أن يربط بين الذكريات القديمة والقريبة العهد .. وظهر له في موازاة كل من زواج أبيه المتسرع وزواجه هو بامرأة أجنبية ...

عندما رجع الى السيارة ، أحس رفاقه بتأثره اثر هذا الاتصال الاول بجذوره . وكان الشيء المجهول لديهم هو القرار النهائي الذي اتخذه مع نفسه .. لا ! لن يأتي للبحث عن معتقل لايامه الماضية .. انه ـ فقط ـ في انتقال من معتقل الى آخر .

* * *

انحدرت المرأة العجوز مع طريق ضيق يأتي من قلب القرية لينتهي الى الساحة الصغيرة عند المدخل . كانت متجهة الى العين مع انتعاش الصباح ، تحمل على ظهرها جرة طينية طويلة ، تحيط بشكلها الدائري الوان متراكمة عديدة ، وحزام غليظ جعل خصيصا لحملها .

بيدها اليمنى كانت تمسك دلوا ازرق من مادة البلاستيك . سوف تنقل الدلو ـ عند العودة ـ من يد الى أخرى باستمرار لانه أصعب من حمل الجرة ، وتبقى غريبة كل مقارنة بين حالة ضعف هذه المرأة والعبء الذي تحملته . وكلما اقتربت ، برزت صفات ملابسها ذات الالوان الشاحبة والتي كانت ـ دون شك ـ زاهرة من قبل .. « الفوطة » المزركشة كانت من الكتان الخشن يظهر من تحتها الفستان الطويل الممتد حتى الكعبين . أما الصدار الواسع فكان مكسوا بالدانتيلا ، ويغطي رأسها منديل أسود تطل منه خصلات شعر مصبوغ بالحنة وقد كسا جذورها الشيب .

كانت حافية الرجلين ، غير ان جلدها الصلب يتحمل الاشواك أكثر من بعض النعال الجلدية .

ذلك هو نوع الازياء المنتشرة في الناحية تقريبا مع بعض التعديلات الضرورية وفق سن المرأة التي تحمله .. فكر العربي ـ مع نفسه ـ ان الحياة هنا لم تتغير حقيقة في شيء .

بدأت المرأة تقترب . من هذا الواقف قرب الصخرة ؟ وهل يتحتم عليها اليوم أن تتخلى عن فعل عاودته طوال حياتها . وهو أن تضع كفها المفتوحة على الصخرة السلفية ثم تعيدها الى شفتيها لتضع عليها قبلة حارة ؟

يحكى ان مؤسس هذه القرية أتى بصخرة « الشيست » عمدا من عند أجداده أهل (أوزباك) ووضعها في ذلك المكان لكي يتكاثر نسبه . بنيت المنازل الاولى لتشكل القرية ثم نصبت تلك الصخرة لتكون رمزا وتمثالا .

.. وكان يحكى انها تجلب اليها أولادها الذين يغيبون طويلا عن القرية .

كانت « كولة » تؤمن من غير تحفظ بكل ما يحكى . ولا تتردد كلما سمحت لها احتياطاتها المالية أن تشتري شمعة ، تشعلها وتضعها داخل حفرة في الصخرة لكي تتحقق لها احدى أمنياتها التي شكلت سر حياتها المكتوم أبدا والذي تابعها حتى أواخر خرفها وشيخوختها .

نعم ، لقد آمنت « كولة » ـ منذ طلاقها ـ انه سيعود .. انتظرت سنين طويلة لم تعترف لها بحقها ، فقررت أن تنتظر حتى الممات . غاب جمالها وولى ، ولكن شبابها بقي داخل قلبها ، خبأته له بحرص شديد غيور .

* * *

كانوا أربعة أمام الصخرة . تظهر اللامبالاة لدى اثنين منهم . كانا شابين يرتديان لباس المدينة . أما الثالث ـ باللباس نفسه ـ فيبدو أكبرهم سنا ، كان يتحدث مع الحاج ، أحد شيوخ القرية ، متكئا على جانب من الصخرة .

لقد أتوا ـ دون شك ـ في السيارة السوداء التي كانت تسطع في سكون الشمس الحارة .

مرت على بعد خطوات .. تأهبت لتحييهم فناداها الحاج :

ـ كولة ! أنت تعرفين قبر سعدية بنت الـ ... هذا ابنها . قد رجع الينا بعد سنين وسنين ويريد أن يرى قبر أمه .

أحست كولة ان قلبها الضعيف يكاد ينهار .. هزة عنيفة حدثت في صدرها زعزعت عظامها القديمة .

هل سمعت جيدا ؟ هذا الرجل الكبير ، بلا شعر .. هو العربي ! تظاهرت ـ في صعوبة غير خفية ـ بوجه طلق لتجيب بصوت متلعثم :

ـ هكذا ! سمعت نداء الصخرة ، كنت واثقة من عودتك . فمرحبا بك اذن .

لا زال العربي يتذكر كولة . هو وجه ابنة عمه الغض ، الفتاة التي خصصوها لتكون زوجته .. شاركها في اللعب أيام الطفولة قبل أن تبدأ الفرار منه كلما التقت به ، بذلك كانت تداعبه ليستمر اللعب لانها كانت واثقة انها سوف تكون له في المستقبل .

كولة لم تتغير ، أو لعل كلاهما هرم وتقدم في السن ؟

وبدأ حديث العجوزين .. توجها نحو المقبرة وحديثهما حول العائلة التي انطفأت . شيوخ أموات ، وأطفال قتلى . تحدثا عن الذين عرفاهم والذين ذهبوا في حضورهما .. والذين رأيناهم ذاهبين : هو نحو أربعين سنة من الغياب ، وهي الى زواج فاشل لم يدم . وكان استعراضا مؤثرا ، هذان العجوزان اللذان يحييان معا سنين الشباب .

* * *

التحق الحاج بركنه المظلل قرب الجامع . وتوجهت كولة الى العين وكأنها تركت وراءها شيئا ما . وحين استدارت السيارة الى ساحة القرية في طريق العودة . لم يندهش « حسين » حين توجه اليه « العربي » :

« سوف نعيد هذا السفر يا حسين بعد أسبوع ، ولكن في هذه المرة ، لن أرجع معك » (*) .

ترجمة : عبد القادر ربيع

(*) القصة ماخوذة من مجموعة « الباقي » « Le Survivant » منشورات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (١٩٧١) .